الخطبة الخامسة عشرة

استر أخاك ولا تفضحه

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، الحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، الحمد الله حتى يرضى، والحمد لله إذا رضي، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم، وبعد:

عن عبد الله بن بريدة عن أبيه رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «يا معشر من أسلم ولم يدخل الإيمان في قلبه لا تذموا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يطلب عورة أخيه المسلم هتك الله ستره، وأبدى عورته ولو كان في ستر من بيته» الطبراني.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يخلص الإيمان إلى قلبه لا تؤذوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته حتى يخوفه الله في بطن بيته» متفق عليه.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: 49/ 12].

بعض الناس يعتقد أنه أفضل من غيره، وينظر إلى نفسه نظرة إعجاب ونظرة

فوقية ويعتقد أن الناس أقل منه عزة وشرفًا وفضلاً، وإذا رأى من أحد ذنبًا أو معصية شهّر به وأذله وعاتبه وشنّع به وكأنه هو المعصوم وكأنه هو الكامل أو الأفضل والأتقى.

يا أخي كلنا بشر، وكلنا لنا شهوات، وكلنا فينا ضعف، وضعفنا مختلف، فنقطة ضعفك قد تختلف عن نقطة ضعفي، ولكننا كلنا ذوو خطأ وقد قال عليه الصلاة والسلام: «كل بني آدم خطَّاء وخير الخطائين التوابون» م - ن - حم - ت - ك - هـ عن أنس.

وعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لولا أنكم تذنبون لخلق الله خلقًا يذنبون فيغفر لهم» مسلم - حم - ت.

فيا أخي في الله ليس لك حق في أن تتعالى عليّ أو أن تذلني أو أن تحتقرني لأني أذنبت أو لأني عصيت أو ارتكبت معصية. لك أن تنصحني باحترام ومحبة، ثم يجب عليك أن تسترني ولا تفضحني، فكلنا ذوو خطأ، وكلنا بشر، وكلنا لنا نقاط ضعف، وكل منّا له شهوات، نسأل الله العافية. وكلنا ننظر إلى عفو الله، وكلنا يستغفر وكلنا يندم، وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: أُتي إلى النبي ﷺ برجل قد شرب (أي: الخمر) فقال: اضربوه، قال: فضربوه، فقال بعض القوم له: أخزاك الله، قال ﷺ: «لا تقولوا هكذا، لا تكونوا عون الشيطان على أخيكم» رواه البخاري، وفي رواية أبي داود زاد في قوله عليه الصلاة والسلام: «ولكن قولوا: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه».

ثم يا أخي هذا العاصي قد يستغفر ويتوب فيتوب الله عليه وقد يندم ويخاف ويعتذر، من أعطاك الحق لتحقيره وشتمه؟ من أعطاك الحق لتكون خيراً منه؟ من يعلم ما يخبئ لك القدر؟ من يعلم من يُختم له بخير؟ من منا قد أخذ عهداً بأنه من أصحاب الجنة؟ من منّا يأمن الفتنة على نفسه؟ قال عليه الصلاة والسلام:

«كان رجلان في بني إسرائيل متواخيان، وكان أحدهما يذنب، والآخر يجتهد في العبادة، وكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب، فيقول: أقصر، فوجده يومـًا على ذنب، فقال له: أقصر، فقال: خلني وربي، أبعثت علي رقيبـًا؟ فقال: والله لا يغفر الله لك، أو لا يدخلك الله الجنة، فقبض روحهما، فاجتمعا عند رب العالمين، فقال لهذا المجتهد: أكنت بي عالمـًا؟ أو كنت على ما في يدي قادراً؟ وقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة برحمتي، وقال للآخر: اذهبوا به إلى النار» (حم - د عن أبي هريرة)، وهذه عقوبة التألي على الله تعالى، أي أن تفرض رأيك على ربك، أو أن تلزم الله سبحانه وتعالى بأمر، فقد روى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «فإن الله لا مُكْرِهَ له» البخاري (6339).

وقوله تعالى في آية الحجرات: (ولا تجسسوا) أي: لا تتتبّع الأخبار السيئة أي: لا تبحث عن أخطاء إخوانك، ولا تلاحق فلان وفلان ماذا عمل؟ وماذا ارتكب، ثم قال: (ولا يغتب بعضكم بعضـًا)، انظر إلى الإعجاز الرباني أي أنك لو تجسست على أخيك ورأيت مخالفة ما، ومعصية ما، وذنبـًا ما، لا تحدث به فهذه غيبة، ما حدثت به صحيح ولكنه غيبة تُحاسب عليها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما الغيبة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال ﷺ: «ذكرك أخاك بما يكره» قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال ﷺ: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه فقد بَهتّه» رواه مسلم.

الغيبة تمزق المجتمع وتفكك الأُسَر، والعداوة بين الإخوة، والقطيعة بين الأصحاب، وهي نصر وعون للشيطان، لأن فَضْحَكَ لأخيك تجعله ينفر وينزوي ويبتعد عن المسجد والجمعة والجماعة، لأنك فضحته بفعلته الشنيعة، فهو الآن منكسر ويشعر بالخزي ويشعر بالمهانة فيبتعد فيتحكم به الشيطان ويستبد به، وقد تكون معصية شنيعة فتطلقه زوجته ويبتعد عنه أولاده، ولو أنك

سترته وأخفيت ما كان منه، لعله يندم أو يستغفر فيعود ويقلع عما كان يفعله لكان خيراً له ولأهله ولمجتمعه.

قال ﷺ: «إن رجلاً حضره الموت فلما أيس من الحياة أوصى أهله: إذا أنا مت فاجمعوا لي حطبًا كثيراً جزلاً، ثم أوقدوا فيه ناراً حتى إذا أكلَتْ لحمي، وخلصت إلى عظمي، فامتحشت فخذوها فاطحنوها، ثم انظروا يومًا راحًا فاذروها في اليم، ففعلوا ما أمرهم، فجمعه الله تعالى وقال: لم فعلت ذلك؟ قال: من خشيتك، فغفر له» (حم - ق - ن - هـ عن حذيفة وأبي مسعود). (يومًا راحًا) أي: يوم فيه ريح شديدة.

وقال ﷺ: «كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من الإجهار أن يعمل الرجل بالليل عملاً ثم يصبح وقد ستره الله فيقول: عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه فيصبح يكشف ستر الله عزوجل عنه» (ق عن أبي هريرة).

وحديث: «كل أمتي معافى إلا المجاهرين»، هذا الحديث نعمة من نعم الله علينا، لأن فيه وعد بالمعافاة، فيه وعد بالعفو والمغفرة، فإذا تاب العبد واستغفر قَبِلَ الله منه، إلا المجاهرين الذين يفضحون أنفسهم ويتكلمون بما فعلوه من السيئات، فهؤلاء هتكوا ستر الله عليهم، فهؤلاء في خطر، إذن فما بالك أنت إذا أعلنت وجاهرت وفضحت معصية أخيك فكيف يكون حسابك؟

ثم يا أخي الذي فضحت ستر أخيك، وكشفت خطأه ومعصيته ألا تخاف أن تكون ممن يدخلون تحت قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: 24/ 19]، فاحذر يا أخي أن تكون ممن يدخلون في العذاب الأليم! ثم ما الذي تستفيد منه بفضحك أخيك؟ والله إنك لا تستفيد بشيء إلا أنك خسرت حسناتك وخدمت الشيطان وفرقت بين الأهل والإخوان.

وعززت شيطان نفسك وكسبت إثم الغيبة وما آلت إليه من أضرار وخسائر، ومع هذا كله قد تخسر ثقة الناس بك؛ لأنهم الآن عرفوك وعرفوا أنك نمّام وصاحب غيبة وليس عندك ورع أو تقوى.

قال يحيى بن معاذ: ليكن حظ أخيك المؤمن منك ثلاث خصال: 1 – إن لم تنفعه فلا تضرَّه، 2 – وإن لم تُسرهُ فلا تغمَّه، 3 – وإن لم تمدحه فلا تذمّه، وأقول: وإذا رأيت منه ريبة فاستره ولا تفضحه، وإذا استطعت فانصحه وادعُ له، فكلنا ذوو خطأ، وكل منا معرض للفتنة، وكل منا يملك نقاط ضعف.

قال ﷺ: «الظلم ثلاثة: فظلم لا يتركه الله، وظلم يُغْفَر، وظلم لا يُغْفَر، فأما الظلم الذي لا يغفر: فالشرك، لا يغفره الله، وأما الظلم الذي يَغْفِره الله: فظلم العبد فيما بينه وبين ربه، وأما الذي لا يترك: فظلم العباد فيما بينهم، يقص الله بعضهم على بعض» (ط عن أنس).

وقال ﷺ: «أتدرون من المفلس؟ إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار». (حم – م – د – ت عن أبي هريرة).

وقال ﷺ: «اتقوا المظالم ما استطعتم، فإن الرجل يجيء يوم القيامة بحسنات يرى أنها ستنجيه، فما يزال عند ذلك يقول: إن لفلان قِبَلَكَ مظلمة، فيقال: امحوا من حسناته، فما تبقى له حسنة، ومثل ذلك كمثل سفر نزلوا بفلاة من الأرض ليس معهم حطب، فتفرق القوم فاحتطبوا للنار وأنضجوا ما أرادوا، فكذلك الذنوب». (الخرائطي في مساوئ الأخلاق عن ابن مسعود).

ثم إن الله سبحانه وتعالى في آيات الحجرات مَثَّلَ تمثيلاً قوياً جداً؛ فالغيبة

كأنك تأكل من لحم أخيك الميت، من يقدر على هذا؟! لذلك سأل سبحانه: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: 94/ 21] أسلوب قوي رائع في تصوير الغيبة، فاحذر يا عبد الله، وتذكر قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: 24/ 24]، وقد قال الإمام الشافعي:

إذا رُمْتَ أن تحيا سليماً من الرَّدى ... ودِينُكَ موفُورٌ وعِرضُك صَيِّنُ
لسانكَ لا تَذكُرْ به عورةَ امرِئٍ ... فكُلُّكَ عوراتٌ وللنَّاسِ أَلْسُنُ
وعيناك إن أبدتْ إليك معايباً ... فدعها وقل: يا عينُ للناسِ أعينُ
وعاشِرْ بمَعروفٍ وسامِحْ مَنِ اعتَدَى ... ودافِعْ ولكن بالتي هي أحسنُ

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كل المسلم على المسلم حرام؛ دمه وماله وعرضه» رواه مسلم، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونو عباد الله إخوانًا» متفق عليه، «ولا تحسسوا ولا تجسسوا» التحسس: هو تتبع أخبار شخص ما، والاستماع إلى ما يقال فيه أو عنه، قال تعالى: ﴿اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: 12/ 87]، والتجسس: هو تتبع أخبار شخص ما، للطعن فيه ولتعييره ولمزه وتصغيره، وقوله عليه الصلاة والسلام: «إياكم والظن» أي: الظن السيء بأخيك المسلم؛ لأن الأصل السلامة والبراءة من الغلط حتى يُقام الدليل على خلافه، لذلك قال: «فإن الظن أكذب الحديث» فيُمنع التشكيك بالنوايا والمقاصد بدون دليل.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم لا يَظلمه ولا يُسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة» متفق عليه.

وقال عليه الصلاة والسلام: «لا يستر عبدٌ عبداً في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة» صحيح لغيره الترغيب والترهيب، وقال عليه الصلاة والسلام: «إن الله حَيِيّ سِتّير يحب الحياء والستر» د، ن.

وقال ﷺ: «من ستر مسلماً في الدنيا ستره الله في الدنيا والآخرة» مسلم، وقال عليه الصلاة والسلام: «يُدنَى المؤمن يوم القيامة من ربه حتى يضع عليه كنفه، فيقرره بذنوبه فيقول: هل تعرف؟ فيقول: أي رب أعرف، قال: فإني سترتها عليك في الدنيا وإني أغفرها لك اليوم. فيعطى صحيفة حسناته» ق.

وعن معاوية رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت تفسدهم» أبو داود صححه النووي.

لأنك إذا فضحت الناس خربت بيوتهم، وفرقت بين الزوج وزوجته وبين الأخ وأخيه، والابن وأبيه، وفرقت بين الأصحاب والأحباب، وعمت الفاحشة وتجرأ عليها الناس وضعاف النفوس.

وكما أنه يجب علينا ألا نهتك ونكشف سر إخواننا، كذلك يجب علينا أن لا نعيّرهم ولا أن ننتقصهم أو نحتقرهم فكلنا ذوو خطأ وكلنا مُعَرَّض للفتنة وهناك حديث ضعيف رواه الترمذي فيه: «لا تظهر الشماتة بأخيك فيعافيه الله ويبتليك».

وقال الفضيل بن عياض: «المؤمن يستر وينصح والفاجر يهتك ويعيّر»، وقال عليه الصلاة والسلام: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت» البخاري.

جاء رجل إلى أحد الصالحين وقال له: إن فلان يقول فيك: كذا وكذا، فقال له الرجل الصالح: لقد جئتني بثلاث جنايات: 1 – باعدت بيني وبين أخي، 2 – شغلت قلبي بلا طائل، 3 – أفسدت سمعتك عندي.

وقال رجل للإمام الشافعي: إن فلانـًا قال عنك سوءاً، فقال الشافعي رحمه الله: إذا صدقت فأنت نمّام، وإذا كذبت فهذا بهتان، وفي كلا الحالتين أنت فاسق، قل ما تشاء عني أو عن غيري، فمَلَكٌ عن شمالك يحفظ حقي وحق غيري.

جاء رجل إلى خالد بن الوليد رضي الله عنه فقال له: إن فلانـًا شتمك، فقال خالد رحمه الله: تلك صحيفته فليملأها بما شاء.

وقيل لأحد الحكماء: إن فلانـًا يتهمك، فقال الحكيم: أما وجد الشيطان رسولاً غيرك؟ وقيل لأحد التابعين: إن فلانـًا وقع فيك، فقال له: إن كان حقـًا ما يقول فيّ فإني أسأل الله تعالى أن يغفر لي، وإن كان باطلاً ما قال فيّ فإني أسأل الله تعالى أن يغفر له. اللهم اختم بالصالحات أعمالنا، واغفر لنا وارحمنا.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه وسلم